رؤية نقدية لنظرية السيولة لزيجمونت باومان

A Critical View of Liquid Modernity Theory by Zygmunt Baumann

د. رجاء طه محمد القاضي القحطاني

أستاذ مساعد بعلم الاجتماع قسم علم الاجتماع والخدمة الاجتماعية
جامعة الملك عبدالعزيز بجدة

أستاذة / آسيه سمير صالح بالبيد

باحثة دكتوراه بقسم علم الاجتماع

جامعة الملك عبدالعزيز بجدة

المستخلص :

يهدف هذا المقال إلى عرض وتحليل أفكار العالم زيجمونت باومان أحد منظري علم الاجتماع الحديث وصاحب نظرية ما بعد الحداثة أو كما يسميها (الحداثة السائلة) والتي عرضها من خلال (مجموعة السيولة) التي تضمنت ست كتب متمثلة في كتاب "الحداثة السائلة" والذي وضح فيه أن المجتمعات تتقدم بصورة مرحلية، فما قبل الحداثة السائلة هناك حداثة صلبة والتي يرى باومان أنها منظمة عقلانية ويمكن التنبوء بها وراسخة نسبياً أما الحداثة السائلة فهي حالة من التغير المستمر والدائم والغامض. وتناول باومان في كتابه المفاهيم العامة للنظرية كالتحرر والفردية والزمان/المكان والعمل والجماعة. وتلته كتب مجموعة السيولة (الحب والأخلاق والوقت والخوف والحياة)[1]، والتي ناقش خلالها ظاهرة الفردية وذلك من خلال النظر في العلاقة ما بين رأس المال والأرض والعمل، بالإضافة لطبيعة الحياة العصرية السائلة والتي لا توجد فيها روابط دائمة ولا تكون الروابط شديدة الإحكام يمكن التخلي عنها حينما تتغير الظروف، بالإضافة لسيادة نظام العولمة الذي يعتمد فيه الأفراد على بعضهم البعض بإدراك أو بدون إدراك منهم، وهناك أيضاً سيولة في انتقالات البشر والسلع والأفكار وأنماط الحياة والمال من مكان لآخر.

الكلمات المفتاح:

الحداثة، نظرية مابعد الحداثة، نظرية السيولة، نظريات علم الاجتماع، العلاقات الاجتماعية، زيجمونت باومان.

Abstract

This article aims to present the ideas of the scientist Zygmunt Baumann, one of the modern sociology theorists and the author of postmodern theory, or as he calls it (liquid modernity), which he put forward his most prominent ideas through the (liquidity group), which includes six books represented in the book "Liquid Modernity", which clarified In it, societies progress in a phased manner. Before liquid modernity, there is solid modernity, which Bauman sees as a rational, predictable, and relatively stable organization. As for liquid modernity, it is a state of continuous and permanent change and ambiguity. Then he was followed by the books of the Liquidity Group (Love, Morals, Time, Fear and Life), during which he discussed the phenomenon of individuality by observing the relationship between capital, land and work, in addition to the fluid nature of modern life in which there are no permanent ties and that the links are not so tight that it can be abandoned than when conditions change, in addition to the rule of the globalization system in which individuals depend on each other consciously or unconsciously, and that there is fluidity in the movement of people and goods Ideas, lifestyles, and money are elsewhere.

Key Words:

Modernity, Theory of Post Modernity, Theory of Liquidity, Social Theories, Social Relations, Zygmunt Baumann.

[1] تمت ترجمة مجموعة كتب السيولة الستة للعربية على يد الدكتور حجاج أبو جبر، وقدمتها الدكتورة هبة رؤف عزت في دار الشبكة العربية للأبحاث والنشر عام 2016.

تمهيد :

بعد أن خرجت أوروبا من عصر الظلمات[2] إلى عصر التنوير بدأ الفكر الأوروبي يعرف نهضة فكرية وعلمية بدأت بالترجمة من الحضارة الاسلامية التي يعترف بدورها المنصفون من الغربيين وينكرها الكثيرون. و كانت حصيلة الحضارة العربية من العلوم والمنهجية العلمية القائمة على التجريب والموضوعية بداية عهد التنوير و"التحرر من الوهم والخرافة" كما يعرف ماكس فيبر التحديث (الغريب, ٢٠١٥). وقد وضح ماكس فيبر كيف كانت "العقلانية" Rationalization الشرارة التي حررت مفكري عصر النهضة ثم عصر التنوير من الخرافة وأسست للمنهجية العلمية التي قادت للثورة الفرنسية والثورة الصناعية و ما نتج عنهما من تغيرات شملت التطور العلمي وقيام النظام الرأسمالي والنظام البيروقراطي. وأدى تكاتف هذه العوامل لقيام الحضارة الغربية الحديثة منذ القرن 18وحتى اليوم. وقدقاد التقدم العلمي والتفكير الحر للعمل إلى التحكم في الطبيعة وتسخيرها لصالح الإنسان، ودخل الإنسان الغربي في مرحلة الحداثة والتحديث، فأبدع في إختراع كل الوسائل التي تمكنه من الحياة برفاهية والذي صاحبه تراجعاً للقيم والدين والأخلاق، ولم يعد يؤمن إنسان الحداثة إلا بمغرياتها، ونسي ذاته، بل وحتى جانبه الروحي وساد الفكر العلماني المنادي بضرورة فصل الدين عن الدنيا بصورة نهائية، لأن العلم أعلن انتصاره.

ومما زاد هذا الطرح قوة محاولة الغرب تعميم نموذجه الحضاري في العولمة على كل المجتمعات، على اعتبار أن الحداثة لا مفر منها والعولمة تفرض ذاتها بقوة، فظهر الإنسان العالمي والقيم العالمية، وأعلن "نهاية التاريخ" (Fukuyama, **1989**) وسيطرة الرأسمالية والليبرالية، وذابت الفوارق بين الشعوب عن طريق وسائل الاتصال والإعلام، وظهرت الثقافة الغربية كنموذج يعمم على باقي الأمم، على اعتبارها النموذج الحداثي الذي أبدع الحداثة، ومن ثم فرض الحضارة الغربية بكل مقوماتها على باقي الحضارات، وجعل العالم قرية واحدة، إلا أن ذلك أدى إلى ما عرف بـ "صدام الحضارات" (Huntington, **1993**).

ومن نتائج العولمة والحداثة السباق نحو التسلح وظهور المجتمع الاستهلاكي، مما اثر على الإنسان والبيئة، وظهر من ينادي بما بعد الحداثة لأن الحداثة خلقت لدى الإنسان نوع من القلق والخوف واللاأمن والمراقبة السائلة وهذا بدوره غير من العلاقات والمفاهيم بين المجتمعات والشعوب، ومن هذه المفاهيم مفهوم الثقافة والحداثة والعنف والإنسان والقيم والحب والأخلاق

[2] عصور الظلمات Dark Ages هو مصطلح يستخدمه الاوروبيون لتدليل على الفترة الزمنية من 476 م عند سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية على أيدي الجرمان و حتى سقوط الامبراطورية الرومانية الشرقية على أيدي العثمانيون عام 1453, و يشير البعض إلى ان اول من اطلق هذه التسمية هو لمؤرخ إدوارد جيبون (1737-1794) الذي أطلق على هذه الفترة "ألف سنه من الهمجيه" حيث تفتت الامبراطورية الرومانية و أنهارت رموز الحضارة وعمت الخرافات و سيطر رجال الكنيسة والاقطاعيين على أفراد المجتمع من خلال الخرافات والبدع و محاربة التفكير العلمي.(Ross & McLaghlin,1967)

والحياة وحتى الشر حيث لاحظ الفيلسوف والاجتاعي البولندي زيجمونت باومان أن هذه المفاهيم التي تدخل في أساس الفهم الإنساني لا بد أن تتغير وفقًا لمعطيات الحداثة، ولاحظ أن مفهومها الكلاسيكي ثابت لا يتغير، وبما أننا انتقلنا من زمن التحديث إلى الحداثة لا بد لهذه المفاهيم أن تتغير، ووضع ما أسماه بمصطلح "السيولة" Liquidity. **وتعكس الرؤية الاجتماعية لباومان تفاعله مع ظروف عصره وتحليله لمظاهر** الحداثة؟ وكيف أنتقلت من الصلابة إلى السيولة، وكيف انتقل الإنسان من الخوف الصلب إلى الخوف السائل واللاأمن في زمن الحداثة؟ وما دور المراقبة السائلة في زيادة الخوف السائل أو نقصانه؟ وماذا ننتظر من زمن ما بعد الحداثة؟ ومن هذا المنطلق نقدم في هذه الورقة نظرية زيجمونت باومان حول مابعد الحداثة و التي أطلق عليها "الحداثة السائلة"، Liquid Modernity وعرض مفاهيم هذه النظرية كما عرضها في كتبه "المجموعة السائلة".

من هو زيجمونت باومان ؟

ينتمي باومان ليهود بولندا حيث ولد عام ١٩٢٥, ودرس علم الاجتماع وألتحق بالجيش البولندي وحارب في صفوفه خلال الحرب العالمية الثانية لمقاومة الغزو الألماني النازي لبلاده, وبعد تسريحه من الجيش أكمل دراساته العليا في علم الاجتماع ثم عمل محاضراً بجامعة وارسو. ومع خروج العديد من اليهود من بولندا هاجر عام ١٩٦٨ إلى إسرائيل وبعد ثلاث سنوات رحل إلى إنجلترا ليقضي بقية حياته. وتبنى باومان الفكر الإشتراكي ودافع عنه وتناول في دراساته الحركات العمالية ومفهوم الطبقة, كما يعرف عن باومان عدم تاييده للصهيونية على خلاف والده. وفي أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات من القرن الماضي نشر بومان عددًا من الكتب التي تناولت العلاقة بين الحداثة والبيروقراطية والعقلانية والإقصاء الاجتماعي, واشتهر باهتمامه وتخصصه في دراسات الحداثة والظواهر المرتبطة بها في العالم المعاصر بشكل عام وفي المجتمعات الغربية بشكل خاص (ريتزر، ٢٠٢١). ويقسم بومان الحداثة إلى مرحلتين متميزتين، الأولى التي يسميها "الحداثة الصلبة" ، والتي انطلقت في عصر التنوير في أوروبا في القرن الثامن عشر، وأسفرت عن مفاهيم رئيسية مثل (الدولة الحديثة – المجتمع – الثقافة) . أما المرحلة الثانية فهي ما يسميه (الحداثة السائلة) التي ظهرت على السطح بعد نهاية الحرب العالمية الثانية في الأربعينيات, ويطلق عليها العديد من الباحثين مرحلة (ما بعد الحداثة). أما باومان فقد كان يصفها بالحداثة السائلة ، لاعتقاده أن صلابة المرحلة السابقة قد ذابت وتفككت بسبب العديد من العوامل والعناصر المتداخلة ، مما نتج عنه "تداخل في الحدود وتراخي

الملامح" . واهتم باومان في أبحاثه المختلفة اهتمامًا كبيرًا لوصف خصائص عصر الحداثة السائلة ، وكان من أهم الكتب التي نشرها والمتعلقة بهذا الموضوع "الحداثة السائلة، الحب السائل، الأخلاق السائلة". وفي أثناء مراجعة زيجمونت باومان للأسس الفلسفية والسيسيولوجيا التي قامت عليها الحداثة الغربية، فإنه يعتمد على صور مجازية يوضح من خلالها مسار انتقال منظومة الحداثة من مرحلة الصلابة إلى مرحلة السيولة وهاتان الصورتان المجازيتان تظهران بشكل واضح في متون نصوصه الفلسفية، ناهيك عن صور متعددة وسنحاول أن نقف عند بعضها .

1- **الحداثة الصلبة Solid Modernity:** وهو مفهوم يشير إلى مرحلة الحداثة "سيادة العقل على كل شيء" , ويعبر هذا المفهوم عن صورة مجازية تشير إلى سعي إنسان الحداثة الغربية، إلى خلق نظام محكم وثابت يحدده الخطاب الثقافي والدولة الحديثة دون الاستناد إلى سلطة المؤسسات الدينية والاجتماعية، وبهذا فقد رفعت الحداثة الصلبة عن العالم ستار السحر الذي كان يكسوها. و"فك السحر" حسب عبارة ماكس فيبر يقصد من ورائها تفكيك التصورات الدينية للعالم بغية تأسيس عالم علماني, لذلك رافق عصر التحديث من البداية التحديث الوسواسي القهري وهو جوهر الحداثة الصلبة.

وفك السحر عن العالم هو علامة بارزة على ميلاد الروح الحداثية والتخلص من هاجس الخوف بسيطرة الإرادة البشرية على العالم. يقول باومان: " نزع الألوهية" أو " نزع القداسة عنها" قد حقق أثراً قوياً مذهلاً ، ألا وهو التحرر من أفظع ألوان الخوف – التحرر من الهلع ومن انعدام الأمل عند ملاقاة الشر، ذلك الهلع من غياب الأدوات والمهارات اللازمة لصد الشر وأبعاده إلى مسافة آمنه (جدراوي،٢٠٢١).

فعملية التفكيك التي قام بها المشروع الحداثي الغربي، تهدف إلى إذابة كل النظم البالية التي يعلوها الصدأ لتعلن في المقابل تأسيس نظم أكثر صلابة. ولهذا رأى باومان أن الحداثة في مراحلها الأولى تميزت عن العهود السابقة بالتحديث الوسواسي القهري، وأن التحديث يعني التمييع والإذابة والصهر، ولكن الشغل الشاغل للعقل الحديث في بداية الأمر تقنية الصهر، بل كان شغله الشاغل تصميم القوالب التي كان سيصب فيها المعدن المنصهر وتقنية الحفاظ على هذا التصميم في تلك القوالب .

٢- **الحداثة السائلة: Liquid Modernity** إن ما انتهت إليه المنظومة الحداثية الغربية إلى واقع مشتت ومتشظي، جعله يعلن عن انتقال الحداثة إلى مرحلة ثانية تعرف بالسيولة ، وهي توصيف للوقت الراهن، بحيث تعرف عند بعض المفكرين بمصطلح "ما بعد الحداثة"، في حين ينفرد باومان بمصطلح "الحداثة السائلة" ويشير من خلاله إلى

حالة العالم المعاصر، وما طرأ عليه من تحولات مست كل جوانب الحياة الإنسانية كالمجتمع، السلطة، الأخلاق، المراقبة، الحب والخوف فالسيولة بهذا المعنى لا تعترف بفكرة الثبات والصلابة، بل تفكك كل المفاهيم الصلبة وتتحرر من الحقائق والمفاهيم والمقدسات. كما يعرف باومان الحداثة السائلة بأنها التغير المستمر والدائم، وبهذا تكون الحداثة " عالم مرن مليء بالفرص والتناقض في كثير من الأحيان، ولكنها في ذات الوقت تخلو من المعايير الواضحة" (باومان،٢٠١٦; وجدراوي، ٢٠٢١) .

"وعليه فقد وجه باومان خطابه النقدي لدراسة الوضع المعاصر وبيان منطق السيولة التي تعززت أكثر فأكثر بفعل ظاهرة الكوكبية حسب تعبيره والتي تعرف بالعولمة، ففي العولمة كما يوضح تظهر وتتجلى مظاهر السيولة، سيولة الأفراد من مكان لآخر، وسيولة الهويات وسيولة القيم الأخلاقية من خلال النزعة الاستهلاكية، وما عانته ظواهر تجلت في السلوك والمعتقدات" (البازعي، ٢٠١٦: ١١) .

فالمجتمع المتمركز على الاستهلاك لا يعرف إلا السرعة، والزوال، والحرية، والاسراف والتبذير، فالمجتمع الحديث السائل لا يعترف بالثبات والصلابة، بل يتدفق باستمرار ويتحرك بسرعة كبيرة تستلزم على الفرد اللحاق بركب الموضة، وإتباع أحدث الصيحات العالمية واقتناء أفضل المنتجات الآنية.

من هذه المنطلقات خرج العالم زيجمونت باومان بمجموعته السائلة التي صدرت في سنوات متتالية موزعة في مجلدين يتضمن الأول: الحداثة السائلة، الحياة السائلة ،الحب السائل، والثقافة السائلة. بينما يتضمن المجلد الثاني: الأزمنة السائلة، الخوف السائل،المراقبة السائلة، والشر السائل. وترجمتها جميعاً الشبكة العربية للأبحاث و النشر بدءاً عام ٢٠١٦ . و نعرض فيما يلي أبرز المفاهيم و الأفكار التي تناولته انظرية باومان حول الحداثة السائلة وأبعادها المختلفة:

١) الحداثة السائلة: Liquid Modernity

تناول في كتابه "الحداثة السائلة" (باومان أ،٢٠١٦) الحداثة ومآلاتها الراهنة في حركتها ومسيرتها وتحولاتها من الشكل الصلب إلى الشكل السائل، لأنه ينظر إلى عصر السيولة بأنه يمتاز باللايقين واللاستقرار، وتسعى الحداثة فيه إلى إعادة الإنسان إلى زمن بداوة عالمي، لا يقتصر على مجتمع بعينه. فيحاول باومان في كتابه أن يفهم (الزمن المتغير) لإعادة النظر في الأطر المعرفية المستخدمة في تكوين فردية الإنسان. وقد اقدم باومان في كتابه على تناول خمسة

مفاهيم أدت إلى تفسير الوضع الإنساني، وهي (التحرر، والفردية، والزمان/ المكان، والعمل، والجماعة)؛ مؤلِّفة الفصول الخمسة للكتاب وقد تناول كل المفاهيم التالية:

أ. **التحرر Emancipation:** يرى باومان أن التمييز بين الحرية الذاتية والحرية الموضوعية يفتح صندوق باندورا[3] المليء بالمسائل الإشكالية ، "حيث يشير لفكرة (المظهر عكس الجوهر). بمعنى أن ما يعتقده الناس عن الحرية الذاتية قد لا ينعكس كذلك فعلياً على الناحية الموضوعية" (باومان أ، ٢٠١٦). كما يشير إلى أن التحرر كمفهوم يحتوي على قائمة الإصلاحات السياسية في العصر الحديث. أما الحرية فقد كانت على قائمة القيم التي ينادي بها المفكرون

وقد أشار باومان أن الأفراد ينقسمون إلى فئتين من ناحية النظر لمفهوم الحرية، الأولى: ويمثلها الأفراد الذين لا يريدون الاستماع ولديهم شك في الحرية ، ويرون أن الحقيقة التي تجعل الناس أحراراً هي الحقيقة التي يفعلها الناس . والفئة الثانية : يمثلها الأفراد الذين يؤمنون أن الناس على حق عندما يشكون في الفوائد المعروضة، لذلك لا تناقض بين الاستسلام والتحرير، ولكن لا توجد طريقة أخرى للتحرر سوى الاستسلام للمجتمع واتباع معاييره. وفي المقابل فإن التمرد على معايير المجتمع تجعل الأفراد في معاناة نفسية مستمرة تعيقهم عن اتخاذ القرارات, و بالتالي فإن فقدان القدرة على تنظيم المعايير يعني أن الحياة ستهيمن عليها حالة من الشك والخوف وعدم اليقين.

كما يؤكد باومان في حديثه عن الفرد مقابل المواطن ، حيث أشار إلى أن المجتمع الحديث يتسم بالفردية، وأن هذا التكوين ليس حالة بل نتيجة نشاطات مستمرة ، كما يعتقد أن سبب الفردية لتمثيل مشكلة المواطنة هو أن مصالح الأفراد تهيمن على حياتهم العامة.

وعن أزمة النظرية النقدية، يرى باومان أن مهمة النقد الاجتماعي أصبحت مرتكزة على إعادة بناء جسر بين ما فرقه كل من النزعة الفردية الرسمية من جهة والانفصال بين السلطة والسياسة من جهة اخرى. أي إعادة تصميم (الأغورا[4]) أو الساحة العامة، وهي

[3] صندوق باندورا: ورد في أحد قصص الميثولوجيا الإغريقية، فهو صندوق حُمل بواسطة باندورا (أحد شخصيات القصة) و يتضمن هذا الصندوق كل شرور البشرية من جشع، وغرور، وافتراء، وكذب وحسد، ووهن، ووقاحة.

[4] الأغورا : هي ساحة دائرية كان المزارعون والفلاسفة يأتينا يلتقون بها منذ عام 406 ق.م حيث كانت مركزاً إدارياً ودينياً وتجارياً في الدولة أي المكان العمومي الذي تُتخذ فيه القرارات الأساسية في المجتمع الإغريقي (اليوناني) القديم.

مكان التقاء (الذاتي والمشترك) أي المصلحة العامة والمصلحة الخاصة، بعد أن كان الهدف القديم للنقد الاجتماعي وفق النظرية النقدية هو التحرر الإنساني. ويؤكد أن من يهتم ويفكر سيتعرض لخطرين لا مفر منهما، وهما: الفكر النظيف العاجز، والمزايدة الفعالة –الملوثة– على الهيمنة، إذ أن تلك المزايدة لا بد أن تتحول إلى هيمنة.

ب. **الفردية: Individuality** يرى باومان أن العالم الحديث تسيطر فيه فئة معينة يسمون بالمديرين أو المصممين، ويكون البشر في حياتهم متبعين لهؤلاء المصممين من دون أن يكون لهم القدرة على إشباع فضولهم لكي يفهموا الأمور.

وعند المقارنة بين الرأسمالية الثقيلة والخفيفة ربط باومان بين مصطلح الفردية بالمرحلة الصلبة أو الثقيلة من الحداثة، وتتسم بالثبات في المكان؛ فيتقيد رأس المال بالأرض تماما مثل العمال الذين يعملون لأجل المصنع الفوردي[5]، أما اليوم فرأس المالللم يعد مرتبط بالمكان بل يرتبط بالحركة والسرعة، حيث ينتقل الفرد بخفة مع حقيبة سفر لا تحتوي أكثر من محفظة وهاتف محمول وكومبيوتر متنقل، وبذلك يستطيع أن يقف في كل مكان تقريبًا. وتمثل الرأسمالية الثقيلة عالم السلطات؛ سلطة القادة الذي يعرفون أفضل، وسلطة المعلمين الذين يعلمون المرء كيفية تحسين مستواه. أما الرأسمالية الخفيفة فهي صديقة المستهلك، لم تلغ تلك السلطات بسن قوانين، ولم تلغ أهميتها، بل أوجدت سلطات جديدة عدة. وغالبًا تلك السلطة التي تسيطر بهذا المعنى سلطة لا تأمر ولا تنهي، وإنما تتودد إلى صاحب الاختيار، فتغريه وتغويه، ليكون شعارها (لا تأمرني بعد الآن، أرني نموذجاً أقلده)، فالنموذج (فنان، لاعب كرة قدم، مذيع...)، هو من يكون له السلطة، ويسعى باقي الأفراد إلى تقليده، فالرجال والنساء في عالم اليوم يبحثون عن نماذج يقلدونها لا عن قادة.

وعندما يتحدث باومان عن النزعة الاستهلاكية يرى أنها تمثل مبدأ تحول الإجبار إلى إدمان، بوصفها تعمل على تحطيم العوائق الصلبة المتوالية، والتخلص منها، لتهذب (مبدأ اللذة) ، وتصل إلى الدرجة التي يمليها (مبدأ الواقع) ، فقد كانت (الحاجة) في

---

5 المصنع الفوردي : يشير إلى تواجد عدداً كبيراً من العاملين يؤدون عمل متطابق داخل وحدات إنتاجية كبيرة لا تسمح بتنقل العمالة إلا في نطاق محدود .

القرن التاسع عشر أصل الصلابة، وكانت تتصف بأنها غير مرنة ومحدودة على الدوام؛ لكن في مرحلة زمنية لاحقة حلت محلها (الرغبة) التي تفوقها في السيولة وإمكان الانتشار. أما الآن فلم يعد لها فائدة ، لأنها لا تتمتع بالسرعة الواجبة؛ فالعالم اليوم بحاجة إلى مثير أشد قوة وقابلية للتقلب، بحيث يرفع طلب المستهلك، ليصل إلى حجم المعروض، لذلك جاءت (الأمنية) بديلا يحتاجه العالم، لأنها تكمل تحرير مبدأ اللذة، وتزيل البقية الأخيرة التي يمثلها مبدأ الواقع. فالشراء يبدو مثل الأمنيات كلها، طفوليات ومبالغ فيها.

إن الحياة المتمركزة حول الاستهلاك هي حياة تستغني عن الضوابط والقواعد، وتهتدي بهدي الإغراء والرغبات المتزايدة، ولكي يعبر باومان عن فكرة جسد المستهلك ربطها بالصحة واللياقة فالصحة مرتبطة بحالة يكون فيها الجسد معافى سليم وتحتاج أن تحافظ عليها أما اللياقة فهي مرتبطة بالسيولة فاللياقة لا تعرف حداً ، فمثلاً الأشخاص الذين يتدربون في الصالة الرياضية تجدهم وصلوا إلى حالة على ما يبدو من الكمال ولكنهم في كل مرحلة يقومون بتدريبات شاقة وحين سؤالهم عن متى سيتوقفون ؟ لن يستطيعوا الإجابة لآنهم لا يعرفون الحد الذي يجب إن يتوقفوا فيه ، فهذا الفرق بين اللياقة والصحة فإذا كانت الصحة مرتبطة بالصلابة فإن اللياقة مرتبطة بالسيولة والميوعة التي لا حد لها إطلاقاً .

يرى باومان أنه في عالم ما بعد الحداثة تختفي الفوارق كلها، وتتلاشى الحدود، وكل شيء يصبح نقيض نفسه، وتصبح السخرية هي الإحساس الدائم، ويرى أن الأمور يمكن أن تكون مختلفة نوعاً ما؛ لكن في عصر السيولة تأخذ الهويات تفسيرًا ثقافيًا جديداً، فقد ذهب عصر السخرية، وحل مكانه عصر الجاذبية الذي يقدس فيه المظهر بوصفه الواقع الوحيد. هكذا تنتقل الحداثة من مرحلة الهوية الذاتية (الأصلية) إلى مرحلة الهوية الذاتية (الساخرة)، حتى تنتهي بثقافتنا المعاصرة التي يمكن تسميتها بمرحلة الهوية الذاتية (التجميعية)، ومن ثم الانفصال بين الروح (الداخلية) والشكل (الخارجي) للعلاقات الاجتماعية، بحيث تصبح الهويات محض تذبذبات وتقلبات مستمرة. ففي عالم الإغراء الذي يقطنه مدمنو التسوق، لا يستطيع الفقراء أن يغضوا الطرف عما حولهم؛ فكلما زادت المغريات غرق الفقير في بؤسه من الواقع. أما الأغنياء، فكلما زادت الخيارات أمامهم، نقصت قدرة الجميع على حياة بلا قدرة على الاختيار.

ج.**الزمان/المكان Time/Space**: ويتناول فيه باومان قضية كثيرة الأهمية اليوم، وهي الأمان. فسياسة الخوف اليومي هي أشد خطراً على الثقافة العامة، فهناك خوف يسيطر في الشوارع؛ ذلك الخوف يبعد الناس عن الفضاءات العامة، ولهذا فإنه في التقّدم الحالي الحضري يستمد المجتمع فيه هويته من حدوده المنيعة، وحراسته الشديدة، لا من موضوعه وفكرته ورسالته.

عندما يتحدث باومان عن المكان الطارد، والمكان الجاذب، واللامكان، والمكان الخالي يرى أن أماكن الاستهلاك هي فضاء عائم أو مكان بلا مكان، مكان منغلق على نفسه، ويستمد وجوده من نفسه؛ لا يخلو من التنوع المختلف عن ذاك التنوع الموجود في العالم الخارجي، إذ يتعرض فيه التنوع للتدريب بهدف التخلص من الظواهر السلبية كلها ليكون آمناً، وجاذبيته تأتي من التنوع فيه؛ لتوافر بيئة التسوق/ الاستهلاك أماكن تحقق التوازن بين الحرية الفردية والأمن، وهذا ما لا يوفره الواقع الحقيقي. ويستعير باومان هنا استراتيجيتين لكلود ليفي شتراوس، وهما (الإقصاء والدمج) لفهم الفضاءات العامة في حياتنا؛ بحيث تمثلان متلازمتي الطرد من الجماعة (الإقصاء) أو قبول الفرد وإدخاله في تلك الأماكن (دمج) . ويتحدث أيضاً عن اللامكان، فيعّده فضاء يخلو من السمات الرمزية التي تكشف الهوية أو العلاقة أو التاريخ كالمطارات والغرف الفندقية وغيرها، كونها فضاءات خالية تفتقد إلى إنتاج المعنى. وأخيراً يرى باومان أن المكان الخالي يشكل الفراغ، وهو مكان لا يدخله المرء، ولو دخله، شعر بالغربة، وحس بالخطر، والخوف من منظر البشر.

في عالم الحداثة الذي يعظم أماكن الاستهلاك والتسوق تضعف فيه الروابط والعلاقات الاجتماعية حيث يسعى الفرد خلالها تجنب الآخر المختلف والغريب وتوقع السوء منه مما يؤدي إلى الشك الهادم عمق العلاقات الاجتماعية في زمن السيولة ، بعد أن كانت عبارة (لا تتحدث للغرباء) التي يحذر بها الآباء أبنائهم في السابق ، أصبحت هذه الجملة هي مبدأ العلاقات الاجتماعية في عصر السيولة .

ح.**العمل Work**: يعتقد باومان أن المجتمعات اليوم يجب أن يكون لديها وعي بالنمو الاقتصادي ، وارتفاع مستوى معيشة أعضائها ، والتخطيط والتوجيه والسيطرة على التغيير الاجتماعي. و يرى باومان أن العمل لم يعد مركزاً آمناً ترتبط فيه تعريفات

الذات والهويات ومشاريع الحياة ، ولم يعد يمكن افتراض العمل كأساس أخلاقي للمجتمع ، أو المحور الأخلاقي للحياة الفردية.

يعتقد باومان أنه في عصر الحداثة الراسخة كانت هناك علاقة بين رأس المال والعمل بفضل الترابط بينهما ؛ أقدار الأشخاص الذين يشترون العمل ، والأشخاص الذين يبيعونه ، مرتبطة ارتباطًا وثيقًا ، ومتشابكة بشكل لا ينفصل ؛ حيث في عصر الحداثة الصلبة استغرقت تلك الروابط فترة طويلة من الزمن ، لكن هذا الوضع تغير الآن بسبب وجود عقلية قصيرة الأمد مكان العقلية طويلة الأمد. أصبحت الروابط القوية بين العمل ورأس المال موضة قديمة ، ولم يعد (العمل ورأس المال) قادرين على البقاء معًا لفترة طويلة.

د. **الجماعة** Community: يبدأ باومان حديثه عن الجماعة بمشكلة القومية ، حيث يكون المجتمع الجماهيري مجتمعًا عرقيًا أو مجتمعًا متخيلًا ؛ في رأي باومان ، يتميز العرق بافتراض الجانب الثقافي على أنه حقيقة من حقائق الطبيعة، والحرية ضرورة مفهومة. وهكذا فإن الانتماء العرقي يحث على العمل. ليس من أولويات الفرد اختيار مراجع الانتماء ، بل العيش في مأوى أو بدون منزل ، أو الاختيار بين الوجود والعدم. علاوة على ذلك ، فإن الدولة في العصر الحالي هي التي تعمل على تقوية العرق ، لأنه المبدأ الذي يتجاوز كل الولاءات الأخرى.

ويؤكد باومان أن العالم اليوم يشهد نظاماً ثنائياً : النظام الرسمي (الاقتصادات القومية للدول) والنظام الحقيقي غير الرسمي (المؤسسات المتجاوزة للقوميات). فالدولة لها سلطة وسيادة، لكن هنالك عناصر أخرى يمكن الهيمنة عليها لسد الفراغ عبر الاقتصاد أبرزها اللغة والخلفية العرقية، فعن طريق عولمة الاقتصاد تضاءلت الحاجة إلى شراء الحكومات بالمال إذ يكفي العجز في موازناتها المالية والموارد التي تقع تحت سيطرتها لجعلها تستسلم لأولئك العولميين، وهذا كفيل بأن يتحول الزمن إلى أهل البداوة المرتبطين بالهمجية، زمن البداوة هذا عالمي؛ تتصاعد فيه موجات العنف والإزاحة من المكان ليتحول العالم إلى غيتوات[6] منتشرة، من الممكن ارتكاب أعمال عنف وقتل ضد

6 الغيتوات : يشير إلى منطقة يعيش فيها، طوعاً أو كرهاً، مجموعة من السكان يعتبرهم أغلبية الناس خلفية لعرقية معينة أو لثقافة معينة أو لدين ، أصل الكلمة يعود للإشارة إلى حي اليهود في المدن الأوروبية .

الضحايا دون خوف من الانتقام والانتقام. بل يمكن أن تجعل الضحية الجاني وقادرة على إراقة الدماء بأبشع أشكالها وألوانها. ويذكر باومان هنا مثالاً حرب يوغسلافيا بتجسيد واقعي لتجليات الحداثة السائلة في الحروب.

وبعد كتاب "الحداثة السائلة" استمر باومان في مشروعه النقدي للحداثة السائلة حيث تناول موضوعات السيولة في (الحب والأخلاق والوقت والخوف والحياة) كما نستعرضه بشيء من التفصيل.

٢) الحب السائل : Liquid Love

في كتابه "الحب السائل (باومان ب،٢٠١٦) تناول **الحب الرومانسي والحب الاستهلاكي** وحاول اختيار تعريف محدد لمفهوم الحب ، مشيرًا إلى أن الحب أحد المفاهيم التي لها تعريفات مختلفة ومختلفة. يرون في الحب حدثًا رومانسيًا إلى أقصى حد ، عندما وعد الحبيب صديقته قائلاً: "تعاهدنا على ألا يفرقنا إلا الموت". (باومان ب،٢٠١٦: ٧)

ووفقًا لبومان ، فإن السبب الرئيسي لانتهاء هذا النوع من الحب الرومانسي هو التفكيك الجذري لهياكل القرابة التي تدعمها ، والتي استمدت منها قوتها وحيويتها وأهميتها الخاصة.
(Bauman,2003)

يرى باومان أن الرغبة والحب متشابهان في كثير من النواحي ، وفي نفس الوقت يختلفان في نواحٍ أخرى. فالرغبة هي رغبة في الاستهلاك ، ورغبة في الهلاك والتملك والإذلال ، ومن ثم تؤدي الرغبة إلى تجريد الآخر من ذاتيته كمرحلة أولى ، قبل أن يتم عصره ودخوله مرحلة الموت والفناء. ومن ثم يؤكد باومان أن الرغبة ، منذ ولادتها ، تتلوث بشهوة الموت. أما الحب فهو عكس ما سبق. لا يعتمد على مركزية الذات وعلى هامشية الآخر. بل هي قوة تمد يدها وتتجاوزها وتمدها إلى ما هو خارجها، بحيث تتمدد الذات عبر أبدية الذات. ومن ثم يقر باومان "أنه إذا كانت الرغبة تسعى إلى الاستهلاك، فإن الحب يرغب في التملك". **(**Bauman,2003:44**)**

يقر باومان بأن الحب في عصر الحداثة المتغيرة أصبح نوعًا من الاستثمار ، لأن الارتباط بعلاقة حب سيف ذو حدين. حفظ الحب (الاستثمار) أو إهماله أمر خاضع لحسابات وقرارات المحب ، ولكنه في نفس الوقت يتأثر بقرارات ورغبات الحبيب الذي هو شريك أساسي في ذلك الاستثمار. ومن هنا فإن هذا الاستثمار يسبب الكثير من القلق والتوتر في عصرنا الحالي من الاستهلاك ، لأنه يحمل في داخله كل الميزات والصفات التي تثير مخاوف أطراف العلاقة.

يشير باومان إلى بعض أنماط الحب السائدة في المجتمعات الغربية ، ومن بين أهم هذه الأنماط ما يسمى بـ "علاقات الجيب الأعلى"[7] ، تتميز هذه العلاقات بأنها "حلوة وعابرة" ، حيث أن حلاوتها تنبع من وعي الشريكين ، من حقيقة أنهما لا يضطران إلى بذل جهد طوال الوقت من أجل الحفاظ على أواصر العلاقة. ومن ثم ، يرى باومان في علاقات الجيب الأعلى "التجسيد الحقيقي للاستهلاك الفوري والتخلص الفوري من النفايات" (Bauman,2003:30). ويوضح باومان، أن ذلك السبب هو الذي قلل من جاذبية الزواج باعتباره رابطًا اجتماعيًا قويًا في المجتمعات الغربية واستبداله بنوع آخر من الترابط السريع قصير الأجل.

ويشير باومان إلى أن انتشار مثل هذه العلاقات أدى إلى ظهور مشكلة اجتماعية كبرى تضع روابط القرابة في مأزق. حيث أصبحت "القرابة" ضعيفة وهشة ، وأصبحت حدودها ضبابية ومثيرة للجدل، فقد تم استبدال العلاقات القائمة على مركزية "الهوية المشتركة" بمركزية أخرى أكثر فائدة في عصر الحداثة المتغيرة ، وهي مركزية "المصالح المشتركة". القوة في هذا العصر ، تتحول في الغالب إلى سلاسل من الحلقات الضعيفة الهشة.

ويرى باومان أن (**الاتصال الافتراضي**) يعتبر أحد أهم مظاهر عصر الحداثة السائلة وأن تأثيره على العلاقات بين البشر يتخذ نمطين، الأول: وهو ما يسميه الاتصال الطوبوغرافي (الاتصال المرتبط بالأرض والمكان) ويقصد به أنماط الاتصال المعروفة بين البشر والتي استُخدمت على مر العصور. أما النمط الثاني، فهو الاتصال الافتراضي (اتصال اللامكان) ، ويقصد به أنماط وطرق التواصل الحديثة التي لم تظهر إلا كنتيجة لتطور تقنيات علمية في عصرنا الحاضر. ويؤكد باومان أن هناك اختلافات كثيرة بين النمطين. في الاتصال الافتراضي على سبيل المثال، يعتبر أهم هدف للتواصل فيه هو الاتصال فقط ، كما يحدث في مواقع (الدردشة) عبر الإنترنت ، حيث أدت هذه العملية إلى تكوين عدد من "الزملاء المفضلين لدى الجميع". "يأتي هؤلاء الزملاء ويذهبون ، ولكن هناك دائمًا عدد منهم على الخط ويريدون تبادل الرسائل مع الآخرين. محتوى الرسائل في حد ذاته ليس الهدف الأسمى للعلاقة ، ولكن تبادل الرسائل هو الهدف والغاية". (باومان ب، ٢٠١٦: ٧٠) .

وغالباً ما تدعم شركات الاتصالات والمواقع الإلكترونية تبادل مثل هذا النوع من الاتصال لأسباب تجارية واستهلاكية بحتة. حيث أن استمرار تبادل مثل هذه الرسائل هو نجاح للشركات والمواقع ، بينما وقف تبادلها والدخول في حالة "الصمت الإلكتروني" ما هو إلا دليل على فشل وتوقف الربح. لذا دائما ما تسعى هذه الشركات في زيادة حجم تبادل الرسائل بين المستهلكين

[7] علاقات الجيب الأعلى : وهي تلك العلاقات التي يطلق عليها هذا الاسم لأن المرء يحتفظ بها في جيبه. حتى يتمكن من إخراجها بسهولة متى أراد ذلك .

بتوفير مزايا وعروض وتطوير في الخدمات لتسهيل وتسريع من عملية الاتصال من خلال تطوير واستحداث آليات ورموز يستخدمها المستهلك تساهم في توصيل ما يشعر به من عاطفة وشعور بأقصر الطرق وأسهلها بدلاً من الكتابة العادية المرهقة التي تستغرق وقتًا أطول. فالمجتمع الحديث دائمًا ما يحاول أن يجعل العميل على اتصال دائم بالشبكة ، ويجد نفسه دائمًا مشغولاً بهاتفه المحمول ، إما انتظار مكالمة أو إرسال رسالة.

ويوضح بومان التأثير السلبي للتقنيات الحديثة على العلاقات الأسرية التي سيطرت على الحب. فيقول "إنه في أواخر التسعينيات من القرن الماضي ، كان من الممكن ملاحظة إحدى العائلات في أحد المطاعم ، ستجد أن الأب يواصل عمله على هاتفه المحمول ، بينما تجد الأم ترعى طفليها . الآن الوضع مختلف تمامًا ، حيث أن جميع أفراد الأسرة يحملون هواتفهم المحمولة ، وكل منهم مشغول بمصالح تختلف عن اهتمامات رفاقه ، رغم أن كل تلك الاهتمامات تتعلق بمحاولة الاتصال بالإنترنت". (Bauman,2003:99).

ويشير باومان لأهمية الجنس في الروابط الاجتماعية، أنه في الماضي القديم كان الاقتصاد أسري فالعمل يوزع على جميع أفراد الأسرة ، وكان الأطفال يعملون على زيادة المستوى الاقتصادي الأسرة بمساعدتهم في عملية الإنتاج، لذلك كان يحاول الأب زيادة عدد الأبناء لأن هذا يعني بالتالي تحسين مستوى الأسرة بأكملها، فالأبناء كانوا قوة عاملة مجانية. كما أن إنجاب الأطفال في الماضي لم يقتصر فقط على الجانب الاقتصادي بل هو ممتد لجانب نفسي أيضاً فقد كان انجاب الأطفال يشير إلى محاولة الانسان تحقيق الخلود واستمرار النسل والمكانة الاجتماعية للعائلة. أما في عصر الحداثة السائلة ، فقد تغير الوضع كثيرًا. حيث أصبح متوسط العمر المتوقع لأي فرد من أفراد الأسرة أكبر بكثير من متوسط العمر المتوقع لبقاء "رباط" الأسرة ككل. كما أن إنجاب طفل في هذا العمر أصبح عقبة أمام التخلص من مشروع استثماري معرض للفشل ، أي الحب ، وبدء مشروع بديل آخر مماثل. في الوقت نفسه ، أصبحت تكلفة رعاية الأطفال عبئًا ثقيلًا على أي عائلة ، فبدلاً من كونها أداة استثمار منتجة تجلب المال كما في الماضي ، فقد أصبح الأبناء قوة مستهلك تفتح باباً لإنفاق الثروة وادخار الأسرة ، بشكل يفوق أي مشروع استهلاكي آخر.

٣) الخوف السائل : Liquid Fear

تناول باومان مفهوم "الخوف السائل" (باومان، ٢٠١٧) في كتاب من ستة فصول مشكلة الأخلاق السائلة وأصل وآليات الخوف السائل ، وشرح كيفية استخدام هذا الخوف السائل بطريقة

نفعية من خلال إعادة تدويره لزيادة الربح للدول والعولمة بدلاً من انتقادهم لفشلهم في مسؤولياتهم الهادفة إلى تحقيق الأمن وإزالة الخوف.

ويرى باومان أن الحداثة الصلبة لم تحقق أهداف استراتيجيتها للسلم والأمن الاجتماعي والعالمي، لأن ممارسة مكونات الحداثة مثل العقلانية والبيروقراطية والدولة والفردية والعلم والعلمانية أنتجت ردود فعل سلبية وآثار جانبية حولت الخوف إلى خوف سائل وألقت مسؤولية الأمن على الأفراد أولاً ، ثم باعت الأفراد ووسائل الحماية الذاتية ثانياً.

فالحداثة هي قاعدة العقلانية والبيروقراطية والدولة والفردية والعلم في حياة الإنسان. و قد أستندت استراتيجية الحداثة إلى مواجهة الخوف الناجم عن الجماعات البشرية بالفردية، ومواجهة المخاوف الدينية والحياة الدينية، بالعلمانية الدنيوية والزمانية، ومواجهة الخوف من هشاشة الجسم البشري وأمراضه وطبيعته بالعلم. ويرى باومان بأننا على رغم الممارسة الفعالة للعقلانية والعلم والبيروقراطية والفردية ، لم نقم بإزالة الخوف، بل عمقناه.

ومن هنا جاء مصطلح "الخوف السائل" الذي يعني أن الأفراد، وليس الإنسانية ، أصبحوا أكثر حماية مما كانوا عليه في مرحلة "الحداثة الصلبة" ، لكنهم أصبحوا أقل أمانًا ولديهم شعور دائم بالخوف؛ ويرجع ذلك إلى التأخير الأخلاقي الناجم عن تخلي الدولة عن مسؤولياتها في الأمن والسلام ، وإسناد المسؤولية إلى الأفراد لتحقيق أمنهم.

ويرى باومان أن الحداثة تحولت من صلبة إلى سائلة ، وأصبح الخوف سائلاً نظراً لفصل السلطة عن السياسة. أي فصل ما يمكننا القيام به (قدرتنا) عما يجب علينا القيام به (واجبنا). وبالتالي، فإن مفهوم السيولة هو فصل السلطة (ما يمكننا القيام به) عن السياسة (ما يجب علينا القيام به). إذا قلنا أن مرحلة الحداثة الصلبة ، فهي مرحلة الإنتاج والتنمية التي تسيطر عليها الدولة وتقيّد الأفراد لصالح المجموعة، فإن مرحلة السيولة هي مرحلة تخلّي الدولة عن هذا الدور الذي فتح السوق أمام رأس المال الحر والاستهلاك والتحديث المستمر الذي ليس له غرض أو هدف سوى تحقيق المزيد من الربح والتمتع والإشباع الفوري والمؤقت للرغبات.

والنتيجة هي أن الخوف سيصبح مستمراً ، ولكن مع وهم الحماية الفردية التي تشترى من الدولة والشركات لكسب "الدولة الجامحة" و "العولمة السلبية" مرة أخرى في تكرار ممل للدوران ، بدلاً من لوم الدولة على تأخرها المعنوي مقارنة بتقدمها المادي ، وتخليها عن مسؤوليتها الأمنية. (باومان، ٢٠١٧).

وهكذا يتدفق الخوف السائل ويتسرب من كل فجوة في الزمان والمكان على المجتمع مع إمكانيته على القضاء عليه من خلال تجارب المخاطر السابقة والمتكررة عليه ، ولكن لكون تلك المخاطر مستمرة فإن كثرة الاستماع لها وللتحذيرات العالمية حولها فإن ذلك قد يجعلها تمر على المجتمع بسلاسة ولا تسبب أي ضرر. فالخوف السائل هو حالة مؤقتة يمكن نسيانها ، ولا يتم التعرف إلا على يقين واحد. وهو اليقين أن الغد هو ما سيكون ؛ لذلك يجب أن التدريب باستمرار للتخفي ، والانسحاب ، والمغادرة ، بدلاً من التشبث بعملية مواجهة الخوف.

إن ما يحدث في العالم اليوم هو نتيجة الآثار الجانبية التي خلفها عصر حداثة العولمة والعقلانية والبيروقراطية والعلمانية والفردية والعلم. تلك الآثار التي تعزز الخوف وتجذره بدلاً من القضاء عليه والحد منه.

٤) المراقبة السائلة: Liquid Surveillance

ناقش باومان مع عالم الاجتماع ديفيد ليون (٢٠١٧) في كتابه "المراقبة السائلة" مفهوم الرقابة السائلة ضمن سلسلة نظرية السيولة ووضح كيف تتسرب أساليب المراقبة إلى أصغر تفاصيل الحياة اليومية. ويقدم بومان رؤيته للمراقبة وتطورها عبر الزمان والعصور ، حيث يؤكد أن الملاحظة الصارمة والصلبة التي ميزت العصور السابقة سرعان ما تلاشت واختفت تمامًا في عصرنا الحالي.

مثال على المراقبة الصلبة يتمثل في أحد أهم نماذج المراقبة ، **Panopticon**[8] **(مراقبة الكل)**، أن الإنسان داخل هذا النموذج من المراقبة يتشكل ويتحول إلى كائن مراقب ذاتياً. فتتحول المراقبة الخارجية للأفراد من الحارس، إلى مراقبة داخلية، ويصبحوا من مجرد مراقَبين إلى مراقبين لأنفسهم، وهكذا حتى لو أزيلت عين المراقبة الخارجية عنهم، ستظل عين التحديق الداخلية تراقبهم، وبالتالي تجعل المجتمع هو رقيب لذاته .

8 نموذج Panopticon : وهو نوع من مباني السجون اخترعها المفكر الإنجليزي (جيريمي بنثام) ، اسطواني الشكل يتوسطه فناء فيه برج مراقبة بخلايا ذات نوافذ عريضة على شكل حلقة دائرية تطل على غرف موجودة في المبنى ، ولكل غرفة نافذتان واحدة داخلية تطل على البرج الموجود في الفناء والأخرى خارجية تسمح بدخول ضوء الشمس ، وبهذه الطريقة يكفي أن يكون هناك حارساً واحداً في البرج لكي يراقب جميع الزنازين، لكن السجين لا يستطيع معرفة ما إذا كان الحارس يراقبه في نفس اللحظة فالتصميم الخارجي ، من البرج للسجين تجعله يبدو وكأنه كائن خاضع للرقابة طوال الوقت ، حتى تصبح المراقبة سمة ذاتية داخلية .

وقد قام "ميشيل فوكو" لاحقًا بتأسيس نظريته حول (السيطرة والعقاب) بناءً على هذه الفكرة ، حيث يرى أن الدولة الحديثة، الدولة العقلانية والمستنيرة، قد شكلت مجتمعها على شكل ضخم"**panopticon**" (حرفي، ٢٠١٣) . ويؤكد باومان أن المراقبة في عالم اليوم لم تعد بهذا الشكل المادي الصارم ، ولكن لم يعد هناك سجان واحد يتابع التحركات ، لكن المراقبين تمكنوا من الاستفادة من الأفراد لمراقبتهم بالوسائل والأساليب التي لا يعرفونها.

يضع بومان نموذجًا للمراقبة السائلة ، بأنه عملية السفر والتنقل من مكان إلى آخر ، حيث أن المسافر خلال رحلته يعبر العديد من الأجهزة الأمنية المختلفة التي تفحصه وتكشف ما بداخله وداخل أمتعته. بالإضافة لاستخدامه بطاقة هويته وبطاقته المصرفية وتذكرة سفره ، والتي تفرض عليه تقديم الكثير من المعلومات والبيانات الشخصية للعديد من الهيئات التنظيمية التي يمر بها، سواء داخل حدود بلاده أو خارجها.

ويلوم العديد من الباحثين التكنولوجيا ووسائل التواصل الاجتماعي على دورها في تفكك وهشاشة الروابط الاجتماعية الحقيقية، لكن لباومان رؤية مختلفة للقضية، حيث يرى أن السلطة تبحث عن الانتشار والتوسع في عصر السيولة، وبالتالي تحتاج أدوات التقنية لمساعدتها في فرض الرقابة على المجتمعات التي تم تفككها بالفعل. ومن ثم فهو لا يرى التكنولوجيا سببا لتفكك المجتمع، بل إن تفكك الروابط المجتمعية هو الذي أتاح الفرصة لانتشار التقنيات الحديثة ، التي استخدمتها السلطة لاحقًا لفرض رقابة صارمة على المجتمع.

أجبرت الوسائل التقنية ووسائل التواصل الاجتماعي الفرد اليوم على تعريف نفسه كشيء وليس كإنسان. على سبيل المثال ، تقتصر البيانات التي تحدد هوية كل شخص على لون العين ولون الشعر والطول والوزن وبصمة الإصبع وغيرها من الوسائل المعروفة. ومن ثم فقد أصبح تعريف الشخص مجرد مجموعة من العبارات الوصفية العامة التي قد لا تكون في الغالب مرتبطة بمالكها، وفي الوقت نفسه، أهمل المعيار الأخلاقي والقيمي الذي يمثله الفرد (باومان وليون،٢٠١٧).

اليوم، لم يعد الأمر متعلقًا بكيفية إخفاء الخصوصيات عن المراقبين، بل يتعلق بإمكانية "إغلاق المخارج التي يمكن من خلالها الكشف عن الخصوصية، ثم تتحول مناطق الخصوصية إلى أماكن حبس، حيث يتواجد صاحب المكان الخاص. محكوم عليه بالعذاب، ومقدر له أن يعاني عواقب أفعاله وحده دون مساعدة من أحد، ويُجبر على العيش في حياة تتسم بغياب المستمعين

المتحمسين لانتزاع الأسرار وإخراجها من وراء جدران الخصوصية المحصنة. من أجل الكشف عنها للجميع وجعلها ملكية مشتركة للجميع". (باومان وليون،٢٠١٧ : ٤٩)

ومن هنا يؤكد بومان أن جاذبية مواقع التواصل الاجتماعي تتركز في تبادل المعلومات الخاصة ونشر الصور الشخصية، حيث يكون الهدف الأساسي هو الحصول على أكبر عدد من الإعجابات أو التعليقات أو إتاحة المعلومات للنشر على نطاق أوسع. ، الأمر الذي يشهد الآن إقبالًا ملحوظًا، حيث تؤكد الإحصائيات أن ٦١ ٪ من المراهقين في إنجلترا قاموا بإنشاء حسابات خاصة على مواقع التواصل الاجتماعي مثل Facebook و Twitter و Instagram ، بينما هناك بعض الدول الآسيوية مثل كوريا الجنوبية حيث التواصل الرقمي انتشر بشكل مذهل حتى أصبحت الطريقة المثلى للتواصل.

لكن الوضع الذي وصل إليه الأفراد في إفشاء أسرارهم بأنفسهم على مواقع التواصل الاجتماعي يضعنا أمام العلاقة المزدوجة بين الإغراء الناتج عن كشف السر والقمع الذي تعرض له الفرد في الماضي لإفشاء نفس السر. ومن وجهة نظر بومان، يشهد العالم انفصالًا عن الأمن. في عصر (الحداثة السائلة) تمكن الغرب من بلوغ درجة متقدمة من التعايش الآمن، لكن رغم ذلك استمرت المراقبة في فرض حضورها القوي في تلك المجتمعات وتحولت إلى ما يشبه الإدمان. لذلك يرى باومان أن هناك مفارقة غريبة في واقعنا، وهي أنه في ظل توافر جميع أجهزة المراقبة الموجودة في العالم اليوم ، يتزايد الشعور الدائم بالقلق وعدم الأمان.

حاول باون استكشاف بعض الجوانب الفلسفية الغامضة المتعلقة باهتمام البشرية بفكرة الملاحظة. يقول إن مركز الرغبة الإنسانية الفطرية الأصلية هو في الارتفاع ، ومراقبة كل شيء، ومعرفة ذلك وإدراك تفاصيله وخواصه؛ وينشأ من السعي المستمر للراحة المطلقة. ويعيش الإنسان في رحلة بحث مستمر عن عالم اليوتوبيا[9]، حيث لا مفاجآت أو أسرار سيئة، وينتشر في عالم المابعد الحداثة القلق و الخوف من المستقبل المجهول وغير المتوقع.

٥) الشر السائل: liquid Evil

اشترك باومان مع والفيلسوف والسياسي الليتواني ليونيداس دونسكيس (٢٠١٨) في إعداد كتاب "الشر السائل"، حيث بحثا في علم اجتماع العمى الأخلاقي الذي يصيب الإنسان والمجتمع، خاصة مع استغلال الإنسان سياسياً واستخدامه كسلعة للسعي السياسي والاقتصادي. و يناقش الكاتبان بحثهما ويساهمان فيه لتوضيح وتوضيح طبيعة سيولة الشر هذه. فالشر في الوجدان الإنساني هو عكس الخير،

[9] اليوتوبيا : هي الحياة في مجتمع مثالي لا وجود له، مجتمع يزخر بأسباب الراحة والسعادة لكل بني البشر .

وهو "جزء أساسي من الخريطة الإدراكية التي ترسم العالم في ثنائيات صلبة متعارضة كالنور والظلام، الجمال والقبح، الحق والباطل". (باومان ودونسكيس، ٢٠١٨: ٧).

يحتوي الكتاب على أربعة فصول ، يتحدث أولها عن الاحتفاء بالنزعة اللاشخصية التي يلخصها بقوله "المنافع العامة تصدر عن الرذائل الخاصة، تمامًا كما ينبع الصالح العام من واقعنا وعقلانيتنا وأخطائنا، لا شيء مؤكد. قد يكون الأحمق الجشع المجتهد أكثر فائدة للمجتمع من الحكيم الكسول. في الوقت الحاضر يمكننا أن نسمع بوضوح الصوت المبكر للحداثة ووهمها، والاحتفال بالنسبية ، وتشكيك الرافضين للحقيقة المطلقة" (باومان، ٢٠١٨: ٥٨). ثم اقتبس ليونيداس قول آدم سميث:"إنه ليس خيرًا. لا الجزار ولا الخباز ولا الخباز يتوقعون عشاءنا ، ولكن من حرصهم على مصلحتهم الشخصية" (باومان ودنسكيس، ٢٠١٨: ٧٨).

أما باومان فهو يتحدث عن النزعة اللاشخصية بملاحظة الغموض الذي يحيط بنا بالشرور الدائمة. "إذا لم ينتشر في الكوكب بأسره ويطارد عالمًا خالٍ من بديل واقعي لنفسه فهذا لا يعني أننا توقفنا عن الشكوى من الحالة المؤسفة لأمورنا الشخصية ، وأن القليل منا يمكنه الاعتماد على الهروب من التهديد بإلقاء اللوم المتكرر على القسوة اللاإنسانية المتمردة لما يحيط به ومن نزعة اللاشخصية وفقدان الإحساس وقلة الرحمة"(باومان ودنسكيس ، ٢٠١٨: ٨٩).

كما ناقش الكاتبان الشر السائل والحضارة الغريبة التي شرعت، لأول مرة في التاريخ، في تأسيس تقدّمها على الارتياب المنهجي والخوف من الموت والاعتقاد بأن الحب والعطاء فعلان مستحيلان. والاتجاه إلى إخفاء النقمة في صورة نعمة التي أصبحت السمة الأساسية المميزة لتكنولوجيا غسل الدماغ في الوقت الراهن، تلك التكنولوجيا التي ترتدي عباءة "الاهتمام بالأمن"، مع أنها تُستخدم أساساً لأغراض بعيدة إلى حد ما من اهتمامات السلامة والأمان.

في النهاية نختتم بما اختتم به بومان مجموعته بعبارات قيّمة تلخص القيمة الإنسانية في هذا الوجود المحتمل ، حيث يقول "التفاؤل ليس افتراضًا أحمق أن كل شيء رائع ، بل رؤية تقول أن الشر هو أمر عابر لا يستطيع دائمًا تدمير إنسانيتنا ، واعتقادًا بوجود بدائل دائمًا ، ومهما كانت الحالة ، فإن التفاؤل لا ينبع من سذاجة أو سطحية الفكر ، بل من الحكمة والتجربة العظيمة. إنه الإيمان بأن العالم شيء أعظم مني ومن البيئة المحيطة به ، وأنه مشابه لي. التفكير والشك هدية تستحق الشكر والتقدير ، لأن كل شيء قد يصبح أسوأ مما كان عليه الآن ، أو ربما كان أسوأ مما كان عليه ، لذلك لم أستطع أن أكون على الإطلاق. لذلك فإن موضوع سعادتي ورضائي موضوع ثانوي ، ووجودي في العالم وقدرتي على التفكير في موقفي. إنها شهادة على أن هذا العالم هو الأفضل من بين كل العوالم الممكنة ، لأنني غير موجود في عوالم أخرى ، وبالنسبة للآخرين يجب أن يحل قضية خيره أو شره." (باومان ودونسكيس، ٢٠١٨: ٢٠٢).

المراجع :

- باومان، زيجمونت أ (٢٠١٦). *الحداثة السائلة*. ترجمة: حجاج أبو جبر،تقديم: هبة رؤف عزت. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- باومان، زيجمونت ب (٢٠١٦). *الحب السائل – عن هشاشة الروابط الإنسانية*. ترجمة: حجاج أبو جبر، تقديم: هبة رؤف عزت. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- باومان، زيجمونت د (٢٠١٦). *الأخلاق في عصر الحداثة السائلة*. ترجمة: بثينة إبراهيم وسعد البازعي. أبوظبي: هيئة أبوظبي .
- باومان، زيجمونت (٢٠١٧). *الخوف السائل*. ترجمة: حجاج أبو جبر،تقديم: هبة رؤف عزت. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- باومان، زيجمونت. وليون، ديفيد (٢٠١٧). *المراقبة السائلة*. ترجمة: حجاج أبو جبر،تقديم: هبة رؤف عزت. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- باومان، زيجمونت ،ودونسكيس، ليونيداس (٢٠١٨). *الشر السائل* – العيش مع اللابديل. ترجمة: حجاج أبو جبر،تقديم: هبة رؤف عزت. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- حرفي، سوزان (٢٠١٣) *العلمانية والحداثة والعولمة مع عبدالوهاب المسيري*. دمشق: دار الفكر.
- حجاج،خليل. وجدراوي ،عفاف (٢٠٢١) *سؤال الحداثة عند زيجمونت باومان*، مجلة الرستمية، ٢٧١٦-٩١٣٨(ع٣)، ص ص.١٦٤-١٨٥، الجزائر.
- جدراوي عفاف (٢٠٢١) *براديم السيولة وتطبيقاته النقدية عند زيجمونت باومان* [أطروحة دكتوراه غير منشورة]. جامعة باتنة، الجزائر .
- ريترز، جور. وجيفري، ستيبسكي (٢٠٢١) *النظريات الحديثة في علم الاجتماع*. ترجمة: الدوسري، ذيب وعمر أحمد والرديعان، خالد. الرياض: جرير.

المراجع الإنجليزية:

- Bauman, Zygmunt (2003) Liquid Love: On the Frailty of Human Bonds, Cambridge: Polity.
- Fukuyama, F. (1989)"The End of History?" The National Interest,'
- Frister, Roman (1 September 2011). "Polish-Jewish sociologist compares West Bank separation fence to Warsaw Ghetto walls". Haaretz. Retrieved 4 January 2020.
- Huntington, S. P. (1993). The Clash of Civilizations? Foreign Affairs, 72(3), 22–49. https://doi.org/10.2307/20045621
- Ross,J. B. & McLaghlin M. M. (1967) The Portable Medieval Reader, New York: The Viking.